تعظيم العلم وأهله في القرآن الكريم
دراسة موضوعية

دكتور/ أحمد بن فارس السلوم

الأستاذ المشارك بقسم الدراسات الإسلامية في كلية الآداب

جامعة الملك فيصل – الأحساء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ العلماء الربانيين هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، ومنارات الطريق، وقد جاء القرآن الكريم بتفضيلهم وتوقيرهم، ورفعهم على عامة المؤمنين درجات، وعززت السنة النبوية هذا الجانب، ولا غرو فالعلماء هم المصلحون في مجتمعاتهم، المؤثِّرون على من حولهم، وهم الرواد في علاج المشكلات المختلفة التي قد تعصف بالفرد والمجتمع، وهذا بحث بعنوان: " تعظيم العلم وأهله في القرآن الكريم دراسة موضوعية" يبين منهج القرآن الكريم وطرقه في تعظيم العلم في النفوس، وتعظيم أهله بين الناس.

وسبب اختياري لهذا الموضوع: هو الواقع الذي نعايشه، فإنَّ كثيرًا من المشكلات الفكرية والعلمية التي تعصف بأمتنا ترجع في حقيقتها إلى الاستهانة بالعلماء، والتقليل من شأنهم، وعدم إعطائهم مكانتهم التي أعطاهم الله تعالى، ومن هنا تظهر أهميته.

ويهدف هذا البحث إلى إظهار مكانة العلماء في القرآن الكريم، وأسباب هذه المكانة، والأدوار التي أناطها القرآن الكريم بهم كي ينهضوا بالمجتمع المسلم.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة وأربعة مباحث.

١-المبحث الأول: مسالك القرآن الكريم في تعظيم العلم، وفيه المطالب التالية:

أ-الحث على القراءة.

ب-الامتنان بالعلم على الإنسان.

ج-جعل العلم نورا.

د–التحذير من كتمان العلم.

هـ–ذم الجهل والجهال.

٢– المبحث الثاني: منهج القرآن في تعظيم العلماء وتوقيرهم، وفيه المطالب التالية:

أ–رفع درجة العلماء.

ب–الاستشهاد بالعلماء.

ج–العلماء أعرف الناس بالحق.

د–اختصاص العلماء بأنهم يعقلون مراد الله.

ه–حصر الخشية في العلماء.

و–التعويل على فهم العلماء.

٣–المبحث الثالث: تحذير القرآن الكريم من تنقصِّ العلماء والاستخفاف بهم، وفيه:

أ–الأمر بطاعة العلماء.

ب–تقديم العلماء في القيادة.

ج–حصر الشورى في العلماء.

د–تحريم الاستهزاء بالعلماء.

٤–المبحث الرابع: أثر العلماء في توطيد الأمن والإيمان في المجتمع، وفيه المطالب التالية:

أ–ارتباط الأمن بالإيمان.

ب–العلم طريق الإيمان.

ج–العلماء يمحصون الشائعات.

د–أثر تعظيم العلم في حل مشكلة الاستهانة بالعلم والعلماء.

ثم الخاتمة، وأهم المصادر. والله ولي التوفيق، والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: مسالك القرآن الكريم في تعظيم العلم

لقد سلك القرآن الكريم مسالك شتى في تعظيم العلم، ليقرر هذه العظمة في نفوس الناس، ومن ثمَّ يحثهم على طلب العلم، وينفرهم من الجهل ، وفيما يلي استعراض لأهم هذه المسالك القرآنية:

أ- الحث على القراءة :

القراءة مفتاح العلوم، ومرقاة الفهوم، وهي الخطوة الأولى للعلم، ولأهمية العلم في الدين فقد كانت أول كلمة أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم هي كلمة: "اقرأ"، ويلزم من الأمر بالقراءة الأمر بالكتابة لتلازمهما.

قال تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ العلق: ١ – ٥.

ونلاحظ أنَّ في هذه الآيات الكريمات تكرر فيها ذِكر العلم وما يتصل به من أدوات وطرق كالقراءة والقلم ست مرات.

"ولما كانت هذه السورة هي أول سورة نزلت من القرآن، وكانت تلك الآيات الخمس أول ما نزل منها على الصحيح، فهي بحق افتتاحية الوحي"[1].

ولا شك أنَّ افتتاح الكلام يكون بالأمر العظيم، وهذا الأمر العظيم هو العلم، فيكفيه بذلك شرفًا وتعظيمًا، فديننا دين العلم، ورسالة نبينا صلى الله عليه وسلم يقوم بها العلماء، كما قال تعالى ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ العنكبوت: ٤٩.

قال ابن جرير: (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ) يقول: اقرأ يا محمد بذكر ربك (ا ٱلَّذِي خَلَقَ) ..وقوله: (ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ) يقول: اقرأ يا محمد وربك الأكرم (ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ) خَلْقَهُ للكتابة والخط.

ثم روى عن قتادة (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ) قرأ حتى بلغ (عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ) قال: القلم: نعمة من الله عظيمة، لولا ذلك لم يقم، ولم يصلح عيش أهــ[2].

---

[1] أضواء البيان ١٣/٩

[2] جامع البيان ٥١٩/٢٤.

ولأنَّ القلم من أدوات القراءة العظمى وأركانها الكبرى، أقسم به الباري، وسمى سورة من كتابه باسمه فقال: ﴿نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ القلم: ١.

ولأنَّ السورتين تحملان معنى تعظيم العلم فقد نظر بعض العلماء إلى هذه المناسبة الواضحة، فحملهم على أنْ جعلوا السورتين نزلتا على الولاء.

قال مجاهد: إن أوّل سورة أُنزلت: (ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ)، ثم (نٓ وَٱلۡقَلَمِ)[1].

كما أنه سبحانه أقسم بالشق الثاني من أركان العلم وهو الكتاب المسطور فقال: ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣﴾ الطور: ١ – ٣.

هذا وإنَّ المتأمل في حكمة وصف الباري نفسه بالأكرم في قوله (ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤) ليجد مناسبة كرمه جلية في تعليم الإنسان ، "فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم، حيث قال: الأكرم الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط، لكفى به"[2].

ومن الإعجاز في هذه الآيات الخمس أنَّ العلماء استنبطوا منها طرق تحصيل العلوم، وذلك أنه قد "حصل من ذكر التعليم بالقلم والتعليم الأعم إشارة إلى ما يتلقاه الإنسان من التعاليم سواء كان بالدرس أم بمطالعة الكتب، وأن تحصيل العلوم يعتمد أمورًا ثلاثة:

أحدها: الأخذ عن الغير بالمراجعة، والمطالعة، وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب ..

والثاني: التلقي من الأفواه بالدرس والإملاء..

والثالث: ما تنقدح به العقول من المستنبطات والمخترعات. وهذان داخلان تحت قوله تعالى: (عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ) وفي ذلك اطمئنان لنفس النبي صلى الله عليه وسلم

[1] جامع البيان ٥٢٢/٢٤.

[2] الكشاف ٧٧٦/٤.

بأن عدم معرفته الكتابة لا يحول دون قراءته لأن الله علم الإنسان ما لم يعلم، فالذي علم القراءة لأصحاب المعرفة بالكتابة قادر على أن يعلمك القراءة دون سبق معرفة بالكتابة"[1].

ب- الامتنان بالعلم على الإنسان.

قال سبحانه: (عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)، وهذا في سياق تعداد النعم التي أولها خلق الإنسان من علق، فكأن الآية تنبهنا على أعظم هذه النعم وهو العلم.

قال ابن زيد، في قوله: (عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) قال: علَّم الإنسان خطا بالقلم.

قال ابن جرير: أي علَّم الإنسان الخطّ بالقلم، ولم يكن يَعْلَمُهُ، مع أشياء غير ذلك، مما علمه ولم يكن يعلمه[2].

قال ابن عطية: عدد تعالى نعمة الكتاب بِالْقَلَمِ على الناس وهي موضع عبرة وأعظم منفعة في المخاطبات وتخليد المعارف[3].

وقال ابن كثير: فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات وهن أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[4].

"وأشعر قوله: (مَا لَمْ يَعْلَمْ) أنَّ العلم مسبوق بالجهل فكل علم يحصل فهو علم ما لم يكن يعلم من قبل"[5].

---

[1] التحرير والتنوير ٤٤١/٣٠.

[2] جامع البيان ٥٢٢/٢٤

[3] المحرر الوجيز ٥٠٢/٥.

[4] تفسير ابن كثير ٤٣٧/٨.

[5] التحرير والتنوير ٤٤١/٣٠.

ولذلك قال الشافعي:

وإذا ما ازددت علما زادني علما بجهلي[1]

وقد امتن الباري سبحانه وتعالى على البشرية بتعليم أبيهم آدم الأسماء كلها، وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه كثيرة ذكرها ابن القيم[2]، وغيره.

ج- جَعل العلم نورا.

من مسالك القرآن في تعظيم العلم أن جعله نورا، وجعل الجهل ظلمة، وضرب لذلك المثل في محكم التنزيل فقال سبحانه: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ الأنعام: ١٢٢.

وقد تكلم العلماء في معنى الموت والحياة في هذه الآية، وقال بعضهم: الموت بالكفر، والحياة بالإيمان، والنور هو القرآن، والضلالة هي الكفر، وقال آخرون: الموت بالجهل والحياة بالعلم، ولا شك أنَّ هذا الاختلاف من قبيل التلازم، لأنَّ الإيمان لا يتحصل إلا بالعلم بالله وبرسوله، والكافر جاهل بحق الله، ولم يقدر الله حق قدره..

ولذا قال الماوردي: كان ميتاً بالجهل فأحييناه بالعمل، أنشدني بعض أهل العلم ما يدل على صحة هذا التأويل لبعض شعراء البصرة:

وفي الجهل قبل الموت لأهله ... فأجسامهم قبل القبور قبور

وإن امرءًا لم يحيى بالعلم ميت ... فليس له حتى النشور نشور

(وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ) فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: أن النور القرآن، قاله الحسن، والثاني: أنه العلم الذي يهدي إلى الرشد، والثالث: أنه حُسْنُ الإيمان[3].

ولذلك وُصف القرآن الذي هو مَعدن العلوم بأنه نور، فقال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ النساء: ١٧٤ ، وقال: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الشورى: ٥٢.

---

[1] ديوان الشافعي ١٢.

[2] مفتاح دار السعادة ٥٢/١

[3] النكت والعيون ١٦٣/٢.

د- الأمر بالاستزادة منه.

من مسالك القرآن في تعظيم العلم أنه أمر بالاستزادة منه، فلو لم يكن خيرا لما أمر بذلك، قال تعالى مخاطبا نبيه ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه: ١١٤، قال العلماء: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم[1]، ومفاتيح العلم ثلاثة، وكلها جاء بها التفسير عن السلف في المراد من العلم، فقالوا في قوله: (زِدْنِي عِلْمًا)، أي قرآنا، وفهما، وحفظا[2].

ولذلك استحب بعض أهل العلم إذا قرأ هذه الآية أن يقول: رب زدني علما، فعن علقمة قال: قال: طلبت عبد الله فوجدته في المسجد يصلي بين المغرب والعشاء فسمعته يقرأ طه فلما بلغ (زِدْنِي عِلْمًا) قال: رب زدني علما رب زدني علما ثلاثا، ثم ركع فقرأت الأعراف وهو راكع[3].

د- التحذير من كتمان العلم.

ويلزم من هذا الأمر بإشاعته بين الناس، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ البقرة: ١٥٩، فهذه الآية وإن كانت قد نزلت في أهل الكتاب خاصة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولذا حملها المفسرون على كل كاتم علم، فقال ابن جرير: وهذه الآية وإن كانت نزلت في خاصٍّ من الناس، فإنها معنيٌّ بها كل كاتمٍ علم فرضَ الله تعالى بيانه للناس.

وذلك نظير الخبر الذي رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من سُئل عَن علم يَعلمهُ فكتمه، ألجِمَ يوم القيامة بلجام من نار"[4].

---

[1] الكشاف٣/٩٠.

[2] زاد المسير ١٧٨/٣

[3] رواه المستغفري في فضائل القرآن ١٦٢/١.

[4] جامع البيان ٢٥٢/٣، والحديث رواه أحمد في المسند٧٥٧١، وأبو داود ٣٦٥٨، وابن ماجه ٢٦٦، بإسناد رجاله ثقات، وقد صححه الشيخ شاكر في هوامش التفسير.

ثم روى حديث أبي هريرة المتفق عليه: "لولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدَّثت شيئًا: (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ) إلى آخر الآية، والآية الأخرى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ ﴾ آل عمران: ١٨٧"[١].

قال القرطبي: بهذه الآية استدل العلماء على وجوب تبليغ العلم الحق وتبيان العلم على الجملة[٢].

وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾ آل عمران: ١٨٧.

قال الحسن: هِيَ فِي كل من أوتي علم شيء مِنَ الْكِتَابِ، فَمَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيُعَلِّمْهُ، وَإِيَّاكُمْ وَكِتْمَانَ الْعِلْمِ فَإِنَّهُ هَلَكَةٌ.

وقال قتادة: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئًا فليعلِّمه، وإياكم وكتمانَ العلم، فإن كتمان العلم هَلَكة، ولا يتكلَّفن رجلٌ ما لا علم له به، فيخرج من دين الله فيكون من المتكلِّفين، كان يقال:"مثلُ علم لا يقال به، كمثل كنز لا ينفق منه! ومثل حكمة لا تخرج، كمثل صنم قائم لا يأكل ولا يشرب".

وكان يقال:"طوبي لعالم ناطق، وطوبي لمستمع واعٍ". هذا رجلٌ علم علمًا فعلّمه وبذله ودعا إليه، ورجلٌ سمع خيرًا فحفظه ووعاه وانتفع به[٣].

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: لَا يَحِلُّ لِعَالِمٍ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى عِلْمِهِ، وَلَا لِلْجَاهِلِ أَنْ يَسْكُتَ عَلَى جَهْلِهِ[٤].

ولذا فقد وقف العلماء عند كتم العلم موقفا عظيمًا خشية أن يكونوا من أهل هذا الوعيد، فقد روي عن الحسن بن عمارة، أنه قال: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث، فألفيته على بابه، فقلت: إن رأيت أن تحدثني، قال: أما علمت أني قد تركت الحديث؟ فقلت: إما أن تحدثني، وإما أن أحدثك، فقال: حدثني، فقلت: حدثني الحكم، عن يحيى بن

---

[١] رواه البخاري ١١٨، ومسلم ١٩٤٠

[٢] جامع أحكام القرآن١٥٨/٢.

[٣] جامع البيان ٤٦١/٧.

[٤] الجامع لأحكام القرآن ٣٠٥/٤

الجزار، سمع عليا رضي الله عنه يقول: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا، قال: فحدثني بأربعين حديثا[1].

هـ-ذم الجهل والجهال.

من مسالك تعظيم العلم في القرآن ذم الجهل والجهال، وتصويرهم بأقبح صورة، تنفيرا للناس عن مشابهتهم، ومشاكلة أحوالهم.

فيجعل سبحانه الجهل من أعظم أسباب الشرك به، فقال : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ الزمر: ٦٤ ، وجعله السبب المانع من الهداية، فقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ الأنعام: ١١١ ، وقال: ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ الأحقاف: ٢٣.

وجعله من أسباب الوقوع في المعاصي فقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ النمل: ٥٥.

قال الراغب: الجهل على ثلاثة أضرب، الأول: وهو خلو النفس من العلم، هذا هو الأصل..

والثانى: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا أو فاسدا كمن يترك الصلاة متعمدا، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ البقرة: ٦٧، فجعل فعل الهزو جهلا، وقال عز وجل ﴿ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ ﴾ الحجرات: ٦ ، والجاهل تارة يذكر على سبيل الذم وهو الاكثر وتارة لا على سبيل الذم نحو:﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ البقرة: ٢٧٣، أي من لا يعرف حالهم وليس يعنى المتخصص بالجهل المذموم[2].

قال ابن القيم: إنه سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه .. وقال تعالى ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

[1] سير أعلام النبلاء ٣٣٨/٥.

[2] مفردات غريب القرآن ١٠٢/١

سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ الفرقان: ٤٤، فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم، وقال ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ الأنفال: ٢٢، فأخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب، فالجهال شر منهم وليس علي دين الرسل أضر من الجهال بل أعداؤهم على الحقيقة، وقال تعالى لنبيه وقد أعاذه ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الأنعام: ٣٥، وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ البقرة: ٦٧، وقال لأول رسله نوح عليه السلام ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ هود: ٤٦ [١].

فهل بعد هذا التنفير تقنع نفس بالجهل، ويرضى أحد أن يكون من الجاهلين!

المبحث الثاني: منهج القرآن الكريم في تعظيم العلماء وتوقيرهم

العلماء في هذه الأمة هم خيار الناس، وهم أهل العدالة والثقة، بخلاف الأمم السابقة، فقد كان علماؤها شرارها، قال ابن تيمية: "وكلما كان الإنسان أعظم رغبة في العلم والعبادة وأقدر على ذلك من غيره بحيث تكون قوته على ذلك أقوى ورغبته وإرادته في ذلك أتم؛ كان ما يحصل له إنْ سلمه الله من الشيطان أعظم؛ وكان ما يفتتن به إن تمكن منه الشيطان أعظم.

ولهذا قال الشعبي: كل أمة علماؤها شرارها إلاَّ المسلمين فإنَّ علماءهم خيارهم.

وأهل السنة في الإسلام؛ كأهل الإسلام في الملل؛ وذلك أنَّ كل أمة غير المسلمين فهم ضالون وإنما يضلهم علماؤهم؛ فعلماؤهم شرارهم، والمسلمون على هدى وإنما يتبين الهدى بعلمائهم فعلماؤهم خيارهم؛ وكذلك أهل السنة أئمتهم خيار الأمة وأئمة أهل البدع أضر على الأمة من أهل الذنوب" [٢].

ولذا استحق العلماء التوقير والثناء من القرآن الكريم، ويمكن أن أجمل منهج القرآن في تعظيم العلماء في الأمور التالية:

---

[١] مفتاح دار السعادة ٥٤/١.

[٢] مجموع الفتاوى ٢٨٤/٧.

أ-رفع درجة العلماء:

لا شيء خير بعد الإيمان من العلم، ولذلك فإنَّ من أوتي العلم فقد أوتي خيرا كثيرا، كما قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ البقرة: ٢٦٩ ، قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة إصابة الحق والعمل به وهي العلم النافع والعمل الصالح[١]، وعلى هذا جاء قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من يرد الله به خيرا يفقه في الدين"[٢].

وقد جاء القرآن بتقرير مكانة العلماء بين الناس، وأنَّ الله رفعهم على من سواهم درجات كثيرة، فقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ المجادلة: ١١.

جاء في تفسير هذه الآية عن ابن عباس أنه قَالَ: "يرفع الله الَّذين أُوتُوا الْعلم من الْمُؤمنِينَ على الَّذين لم يؤتوا الْعلم دَرَجَات"[٣].

"وفي لفظ أَنه قَالَ: تَفْسِير هَذِه الْآيَة: يرفع الله الَّذين آمنُوا مِنْكُم وأوتوا الْعلم على الَّذين آمنُوا وَلم يؤتوا الْعلم دَرَجَات.

وَعَن ابْن مَسْعُود قَالَ: مَا خص الله الْعلمَاء فِي شَيْء من الْقُرْآن مَا خصهم فِي هَذِه الْآيَة فضل الله الَّذين آمنُوا وأوتوا الْعلم على الَّذين آمنُوا وَلم يؤتوا الْعلم"[٤].

قال قتادة: إنَّ بالعلم لأهله فضلاً وإن له على أهله حقًا، ولعمري للحقّ عليك أيها العالم فضل، والله معطي كل ذي فضل فضله[٥].

وكان مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير يقول: فضل العلم أحبّ إليّ من فضل العبادة، وخير دينكم الورع، وكان يقول: إنك لتلقى الرجلين أحدهما أكثر صومًا وصلاة

---

[١] مفتاح دار السعادة ٥٢/١.

[٢] متفق عليه، رواه البخاري ٧١، ومسلم ١٠٣٧.

[٣] رواه ابن ابي حاتم في التفسير(١٨٨٤٧)

[٤] الدر المنثور ٨٣/٨

[٥] جامع البيان ٢٤٧/٢٣.

وصدقة، والآخر أفضل منه بونًا بعيدًا، قيل له: وكيف ذاك؟ فقال: هو أشدّهما ورعًا لله عن محارمه[1].

وهذه الرفعة للعلماء هي في الثواب في الآخرة، والكرامة في الدنيا[2].

والآية الثانية الدالة على رفعة أهل العلم، هي: قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ الأنعام: ٨٣ ، وجه ذلك "أنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحجة، فقال تعالى عقيب مناظرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ قال زيد بن أسلم: نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة"[3].

هذا وقد قرر القرآن رفعة العلماء بأسلوب آخر، وهو الاستفهام فقال: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ الزمر: ٩.

قَالَ الزَّجَّاجُ: أَيْ كَمَا لَا يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْمُطِيعُ وَالْعَاصِي[4]. وَقَالَ غَيْرُهُ: الَّذِينَ يَعْلَمُونَ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِعِلْمِهِمْ وَيَعْمَلُونَ بِهِ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَمْ يعلم[5].

قال ابن القيم: نفى سبحانه التسوية بين أهله وبين غيرهم كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، فقال تعالى (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) كما قال تعالى ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الحشر: ٢٠، وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم[6].

---

[1] جامع البيان ٢٤٧/٢٣.

[2] الجامع لأحكام القرآن ٢٩٩/١٧

[3] مفتاح دار السعادة٥١/١

[4] معاني القرآن ٣٤٧/٤، وما بين القوسين ليس في النص المحقق وهو في تفسير القرطبي.

[5] الجامع لأحكام القرآن ٢٤٠/١٥.

[6] مفتاح دار السعادة ٤٩/١

فهذا الاستفهام الإنكاري يقرر فيه الباري سبحانه وتعالى بُعد ما بين العالم والجاهل، ومثله قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ الرعد: ١٩.
فالعلم كالعينين لصاحبه، يبصر بهما الطريق، والجاهل أعمى، يتخبط خبط عشواء.
والاستفهام في هذه الآية إنكاري، لإنكار المساواة بين الحالين، أو تقريري: يقرر فيه الرب سبحانه وتعالى الفرق بين العالم والجاهل.
قال الزمخشري: "دخلت همزة الإنكار على الفاء في قوله أَفَمَنْ يَعْلَمُ لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل في أنّ حال من علم أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ فاستجاب، بمعزل من حال الجاهل الذي لم يستبصر فيستجيب: كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ"[1].
وقال ابن القيم: "إنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون، فقال: ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ الرعد: ١٩، فما ثمَّ إلا عالم أو أعمى، وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صم بكم عمي في غير موضع من كتابه"[2].

ب- الاستشهاد بالعلماء:

وذلك في أعظم أمر وهو التوحيد، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ آل عمران: ١٨.
ذكر الإمام ابن القيم أن في هذه الآية عشرة أوجه تدل على شرف العلم وفضل العلماء.
وقال: "اسْتَشْهد سُبْحَانَهُ بأولي الْعلم على أجل مشهود عَلَيْهِ وهو توحيده فَقَالَ: (شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ) وَهَذَا يدل على فضل الْعلم وأهله من وُجُوه: أحدها: استشهادهم دون غَيرهم من الْبشر، وَالثَّانِي: اقتران شَهَادَتهم بِشَهَادَتِهِ، وَالثَّالِث: اقترانها بِشَهَادَة مَلَائِكَته، وَالرَّابِع: أَن فِي ضمن هَذَا تزكيتهم وتعديلهم فَإِن الله لَا يستشهد من خلقه إلا الْعُدُول..، الْخَامِس: أنه وَصفهم بكونهم أولى الْعلم وَهَذَا يدل على اختصاصهم بِهِ وأنهم أهله وأصحابه لَيْسَ بمستعار لَهُم، السَّادِس:

[1] الكشاف ٥٢٤/٢.
[2] مفتاح دار السعادة ٤٩/١

أنه سُبْحَانَهُ اسْتَشْهد بِنَفسِهِ وَهُوَ أجل شَاهد ثمَّ بِخيَار خلقه وهم مَلَائكَته وَالْعُلَمَاء من عباده ويكفيهم بِهَذَا فضلا وشرفا، السَّابِع: أنه اسْتَشْهد بهم على أجل مشهود بِهِ وأعظمه وأكبره وَهُوَ شَهَادَة أن لَا إِلَه إِلَّا الله والعظيم الْقدر إنما يستشهد على الامر الْعَظِيم أكابر الْخلق وساداتهم، الثَّامن: أنه سُبْحَانَهُ جعل شَهَادَتهم حجَّة على المنكرين فهم بِمَنْزِلَة أدلته وآياته وبراهنيه الدَّالَّة على توحيده، التَّاسِع: أنه سُبْحَانَهُ أفرد الْفِعْل المتضمن لهَذِه الشَّهَادَة لصادرة مِنْهُ وَمن مَلَائكَته وَمِنْهُم وَلم يعْطف شَهَادَتهم بِفعل آخر غير شَهَادَته وَهَذَا يدل على شدَّة ارتباط شَهَادَتهم بِشَهَادَتِه..، الْعَاشِر: أنه سُبْحَانَهُ جعلهم مؤدين لحقه عِنْد عباده بِهَذِه الشَّهَادَة فَإِذا أدوها فقد أدوا الْحق الْمَشْهُود بِهِ فَثَبت الْحق الْمَشْهُود بِهِ فَوَجَبَ على الْخلق الاقرار بِهِ وَكَانَ ذَلِك غَايَة سعادتهم فِي معاشهم ومعادهم وكل من ناله الْهدى بِشَهَادَتِهِم وأقر بِهَذَا الْحق بِسَبَب شَهَادَتهم فَلهم من الاجر مثل أجره وَهَذَا فضل عَظِيم لَا يدرى قدره إلا الله وَكَذَلِكَ كل من شهد بهَا عَن شَهَادَتهم فَلهم من الأجر مثل أجره أيضا"[1].

ج- العلماء أعرف الناس بالحق:

وذلك لانهم عرفوا أن الذي أنزله الله من الهدى والنور هو الحق، فقال تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ سبأ: ٦، وهذا مذكور في سياق الثناء عليهم، ولذلك "فقد سلى سبحانه نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئا، فقال تعالى ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴾ الإسراء: ١٠٦ – ١٠٨، وهذا شرف عظيم لأهل العلم، وتحته أن أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا فسواء آمن به غيرهم"[2].

[1] مفتاح دار السعادة ٤٩/١.

[2] مفتاح دار السعادة ٥٠/١

د-اختصاص العلماء بأنهم يعقلون مراد الله تعالى:

قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ العنكبوت: ٤٣ ، ولذا كان الرجل من السلف إذا مر على المثل فلم يعرفه يحزن، فروى ابن أبي حاتم عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَا أَعْرِفُهَا إِلا أَحْزَنَنِي لأَنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ "[1].

قال الشيخ السعدي: "(الْعَالِمُونَ) أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم، وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين.

والسبب في ذلك: أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها.

وأما من لم يعقلها، مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى. ولهذا، أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها"[2].

هـ-حصر الخشية في العلماء:

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ فاطر: ٢٨ ، والمعنى: إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته العلماء[3].

جاء عن قتادة أنه قال: "كان يقال: كفى بالرهبة علمًا"[4].

قال ابن القيم: " وهذا حصر لخشيته في أولى العلم، وقال تعالى ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ البينة: ٨، وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء، فدل على أن هذا

---

[1] تفسير ابن أبي حاتم (١٧٣٢٧).

[2] تفسير السعدي ٦٣١.

[3] جامع البيان ٤٦٢/٢٠.

[4] جامع البيان ٤٦٢/٢٠

الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النصين، وقال ابن مسعود رضى الله عنه: كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا"[1].

و-التعويل على فهم العلماء:

ولذلك أمر بسؤالهم، فهم أعلم الناس بالحق، قال تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ النحل: ٤٣ ، قال الشيخ السعدي: "وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ النحل: ٤٤، أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه وتبيين معانيه، ﴿ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، فيه فيستخرجون من كنوزه وعلومه بحسب استعدادهم وإقبالهم عليه"[2].

المبحث الثالث: تحذير القرآن الكريم من تنقصٍ العلماء والاستخفاف بهم

من الأدواء الفتاكة في المجتمعات الاستهانة بالعلماء، وتنقصهم، والازدراء بهم، وقد حذر القرآن الكريم من الاستهانة بالعلماء، وسلك طرقا عدة في محاربة تنقص العلماء والازدراء بهم، ومن أهم هذه الطرق ما يلي:

أ-الأمر بطاعة العلماء:

لم يرد في القرآن الكريم الأمر بطاعة أحد بعد الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم إلا أولي الأمر فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ النساء: ٥٩.

---

[1] مفتاح دار السعادة ٥١/١

[2] تفسير السعدي ص٤٤١.

ولا شك أن إيجاب طاعة أحد ما محاربة للاستهانة به، وأولوا الأمر هنا يشمل ما قاله المفسرون من أنهم العلماء والأمراء.

فقد قال جابر وابن عباس ومجاهد وابن أبي نجيح وغيرهم: هم أولوا الفقه في الدين والعلم والعقل[1].

واستدل أبو العالية على صحة هذا التفسير بالقرآن الكريم فقال: في قوله:"وأولي الأمر منكم"، قال: هم أهل العلم، ألا ترى أنه يقول: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ النساء: ٨٣ [2].

قال ابن كثير: "والظاهر والله أعلم أن الآية في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء"[3].

قال السعدي: "ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله"[4].

ب-تقديم العلماء في القيادة:

القيادة من المهام الجسام، التي لا يتضلع بها كل أحد، وليس أحد أجدر بها من العلماء، وقد قص علينا القرآن الكريم قصة تنصيب طالوت ملكا على بني إسرائيل، فاعترض بنو إسرائيل على نبيهم وقالوا: أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، فأجابهم نبيهم معللا هذا الاختيار بعد اصطفاء الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ البقرة: ٢٤٧.

وقد قدم البسطة في العلم على البسطة في الجسم لأنها أهم وأعظم.

---

[1] جامع البيان ٥٠٠/٨.

[2] جامع البيان ٥٠١/٨.

[3] تفسير ابن كثير ٣٤٥/٢.

[4] تفسير السعدي ١٨٣.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقدم العلماء في القيادة على غيرهم، ويعتبر ذلك بحفظ القرآن، لإن حفظ القرآن عندهم لم يكن مقتصرا على الحروف دون معرفة الحدود بل كانوا يتعلمون حروفه وحدوده معا.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية فاستقرأ القوم على أسنانهم قال: ففضلهم شاب بسورة البقرة فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت أمير القوم قال: فغضب شيخ في القوم وقال: يا رسول الله أتؤمره وأنا أكبر منه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه أكثركم قرآنا فقال الشيخ: فوالله يا رسول الله والذي بعثك بالحق ما منعني أن أتعلم القرآن إلا أني أخشى أن لا أقوم به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا القرآن فإنما مثل حامل القرآن كمثل حامل لجراب مسك إن فتحه فتحه طيبا وإن وعاه وعاه طيبا". وفي رواية: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم نفر فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ماذا معكم من القرآن؟ فاستقرأهم حتى مر على رجل من أحدثهم سنا فقال: ماذا معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة قال: معك سورة البقرة؟ قال: نعم قال: اذهب فأنت أميرهم"[1].

ج–حصر الشورى في العلماء:

يقوم النظام السياسي في الإسلام على مبدأ الشورى، وهو مبدأ أصيل في هيكلة الدولة المسلمة، وقد جاء الأمر من الله عز وجل لنبيه المؤيد بالوحي بمشاورة المسلمين، فقال ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ آل عمران: ١٥٩.

وما ذاك إلا لتعليم أمته مبدأ الشورى، ثم جاءت الآية الأخرى مقررة الشورى صفة من صفات المؤمنين فقال تعالى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ الشورى: ٣٨.

والتشاور والمشاورة والمشورة: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض من قولهم شرت العسل إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه[2].

[1] رواه المستغفري في فضائل القرآن ٦٩٧، وقد طول المحقق في تخريجه.

[2] مفردات غريب القرآن ٢٧٠/١.

قال ابن جرير: "إن الله عز وجل أمرَ نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه ومكايد حربه، تألُّفاً منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرةَ التي يُؤْمَنُ عليه معها فتنة الشيطان وتعريفاً منه أمته مأتى الأمور التي تحزُبهم من بعده ومطلبها، ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله. فأما النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله كان يعرِّفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه أو إلهامه إياه صوابَ ذلك. وأما أمته، فإنهم إذا تشاوروا مستنِّين بفعله في ذلك، على تصادُقٍ وتأخٍّ للحق، وإرادةٍ جميعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حَيْد عن هدى، فالله مسدِّدهم وموفِّقهم"[1].

قال القرطبي: "فمدح الله المشاورة في الأمور بمدح القوم الذين كانوا يمتثلون ذلك. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك في الآراء كثير. ولم يكن يشاورهم في الأحكام، لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام. فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة..

وقال بعض العقلاء: ما أخطأت قط! إذا حزبني أمر شاورت قومي ففعلت الذي يرون، فإن أصبت فهم المصيبون، وإن أخطأت فهم المخطئون"[2].

وهكذا كان الخلفاء الراشدون يتخذون أهل الشورى من القراء والعلماء، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا"[3].

د-تحريم الاستهزاء بالعلماء:

الاستهزاء بالعلماء من صفات المنافقين، ولعل في ذكر الله عز وجل أحكام الاستهزاء بهم في سورة التوبة التي فضحت المنافقين أكبر دليل على ذلك.

---

[1] جامع البيان ٣٤٦/٧.

[2] الجامع لأحكام القرآن ٣٧/١٦.

[3] صحيح البخاري٤٦٤٢.

قال عز وجل: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ التوبة: ٦٤ – ٦٦.

ويكفي في بيان هذه الآية نقل سبب نزولها، فقد روي من غير وجه أن رجلا من المنافقين قال: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللقاء. وفي لفظ: "قال رجل في غزوة تبوك في مجلس ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء..فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء إلى رسول الله وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فقال: (أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ) إلى قوله: (مُجْرِمِينَ) وإن رجليه لتنسفان الحجارة وما يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متعلق بنسعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والرسول صلى الله عليه وسلم لا يزيد على هذه الآية"[1].

فقد جعل الله عز وجل الاستهزاء بالعلماء من الكفر، قال ابن العربي: "لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدا أو هزلا، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر، لا خلف فيه بين الأمة، فإن التحقيق أخو الحق والعلم، والهزل أخو الباطل والجهل، قال علماؤنا: نظروا إلى قوله: ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ البقرة: ٦٧ "[2].

المبحث الرابع: أثر العلماء في توطيد الأمن والإيمان في المجتمع

فضل العلماء وخيرهم ليس مقصورا على أنفسهم، بل هو متعد للمجتمع كله، ولذلك فضل العالم على العابد، ورجح مداد العلماء على دماء الشهداء، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل العلماء، وهي معروفة مشهورة، ولا أطيل بذكرها، ولكن من أهم

[1] انظر مجموع الروايات في تفسير الطبري ٣٣٣/١٤، وتفسير ابن كثير ١٧١/٤.

[2] أحكام القرآن ٥٤٣/٢.

آثارهم المباركة على مجتمعاتهم هي توطيدهم الأمن والإيمان بين الناس، وفي المجتمعات التي يكونون فيها، وذلك ما سنبينه في المطالب التالية:

أ-ارتباط الأمن بالإيمان:

الأمن مصدر من أمِن يأمن أمناً وأماناً، وهو ضد الخوف، وربما جعل الأمان اسما للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن[١].

"وآمن إنما يقال على وجهين أحدهما متعديا بنفسه يقال آمنته أي جعلت له الأمن ومنه قيل لله مؤمن، والثانى غير متعد ومعناه صار ذا أمن"[٢].

عُرف الأمن بأنه: عدم توقع مكروه في الزمن الآتي، وأصله طمأنينة النفس وزوال الخوف[٣].

وقد تكررت كلمة "الأمن[٤]" في القرآن الكريم، معرفة ومنكرة.

فأما التنكير ففي صفة البيت الحـــرام، فقال تعالى ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ البقرة: ١٢٥، قال الزمخشري: وَأَمْناً أي موضع أمن، كقوله (حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ) ولأن الجاني يأوي إليه فلا يتعرض له حتى يخرج أهـــ[٥].

ولذا وقع خلاف بين الفقهاء في الجاني الذي يلجأ للحرم.

قال القرطبي: قوله تعالى:" وأمنا" استدل به أبو حنيفة وجماعة من فقهاء الأمصار على ترك إقامة الحد في الحرم على المحصن والسارق إذا لجأ إليه، وعضدوا ذلك بقوله تعالى:" ومن دخله كان آمنا" كأنه قال: آمنوا من دخل البيت. والصحيح إقامة الحدود في الحرم، وأن ذلك من المنسوخ، لأن الاتفاق حاصل أنه لا يقتل في البيت، ويقتل

---

[١] مفردات غريب القرآن ٢٥/١.

[٢] مفردات غريب القرآن ٢٦/١.

[٣] تاج العروس١٨٤/٣٤.

[٤] أعني بهذه الصيغة المصدرية: الأمن، وإلا فقد ورد الفعل آمن في قوله: وآمنهم من خوف، والفعل: أمِن في قوله: (أفأمن الذين مكروا) فضلا عن اسم الفاعل في قوله: (ومن دخله كان آمنا) ، (حرما آمنا) وكذلك قوله تعالى: (إنك من الآمنين).

وكذلك قراءة أبي جعفر: (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمَناً)، أي لست بآمن.

[٥] الكشاف ١٨٥/١.

خارج البيت. وإنما الخلاف هل يقتل في الحرم أم لا؟ والحرم لا يقع عليه اسم البيت حقيقة. وقد أجمعوا أنه لو قتل في الحرم قتل به، ولو أتى حدا أقيد منه فيه، ولو حارب فيه حورب وقتل مكانه. وقال أبو حنيفة: من لجأ إلى الحرم لا يقتل فيه ولا يتابع، ولا يزال يضيق عليه حتى يموت أو يخرج. فنحن نقتله بالسيف، وهو يقتله بالجوع والصد، فأي قتل أشد من هذا. وفي قوله:" وأمنا" تأكيد للأمر باستقبال الكعبة، أي ليس في بيت المقدس هذه الفضيلة، ولا يحج إليه الناس، ومن استعاذ بالحرم أمن من أن يغار عليه أهـــ[1].

ولا شك أنَّ للعلماء في أمن الحرم دورا عظيما، فهم الذين يَعْلَمون ذلك ويحملون الناس عليه.

مثلا: قام عمرو بن سعيد بجمع البعوث كي يبعثها إلى مكة، فقام الصحابي الجليل أبو شريح رضي الله عنه وقال له: ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به النبي ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به: "حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنَّ مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺفيها فقولوا إن الله قد إذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما إذن لي فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب"[2]..فأبو شريح أحد العلماء الذين حفظوا الأمن للبيت الحرام وعلموه الناس.

وأما ورود لفظة الأمن بالتعريف ففي سياقين :

الأول : قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ٨٣.

قال السعدي: "هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو

[1] الجامع لأحكام القرآن ١١١/٢.

[2] رواه البخاري في صحيحه، باب ليبلغ الشاهد الغائب، رقم:١٠٤.

بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين وسرورا لهم وتحرزا من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: (لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ) أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة"[1].

الموضع الثاني: في قصة محاورة إبراهيم عليه السلام قومه، وقوله جوابا على تخويفهم إياه آلهتَهم: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ الأنعام: ٨٠ – ٨٢.

وذلك أنهم خوفوا إبراهيم عاقبة مخالفته، وأن آلهتهم ستمسه بسوء، فقال لهم ذلك، قال ابن إسحاق: "في قوله:(وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ)، يقول: كيف أخاف وثَنًا تعبدون من دون الله لا يضرُّ ولا ينفع، ولا تخافون أنتم الذي يضر وينفع، وقد جعلتم معه شركاء لا تضر ولا تنفع؟ (فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ)، أي: بالأمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة، الذي يَعْبد الذي بيده الضرّ والنفع، أم الذي يعبد ما لا يضرّ ولا ينفع؟ يضرب لهم الأمثال، ويصرِّف لهم العبر، ليعلموا أنَّ الله هو أحق أن يخاف ويعبد مما يعبُدون من دونه"[2].

وكانت هذه هي الحجة التي لقنها الله إبراهيم، فانتصر بها على قومه، وقد اختلف العلماء من قائل (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ) الآية، فقال بعضهم: هذا فصلُ القضاء من الله بين إبراهيم خليله صلى الله عليه وسلم، وبين من حاجّه من قومه من أهل الشرك بالله..، وقال آخرون: هذا جوابٌ

[1] تفسير السعدي ١٩٠.

[2] جامع البيان ٤٩١/١١.

من قوم إبراهيم صلى الله عليه وسلم لإبراهيم، حين قال لهم:"أيُّ الفريقين أحق بالأمن"؟ فقالوا له: الذين آمنوا بالله فوحّدوه أحق بالأمن، إذا لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

وقد رجح شيخ المفسرين ابن جرير أن يكون ذلك من فصل القضاء من رب الأرباب سبحانه[1].

وفي هذه الآية يقرر الباري سبحانه وتعالى ارتباط الأمن بالإيمان، وارتباط الظلم بالشرك، وقد أخبر عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ)، قالوا: يا رسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: " ليس كما تقولون (وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ) بشرك، أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ لقمان: ١٣ "[2].

قال الشيخ السعدي: "قال الله تعالى فاصلا بين الفريقين (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ) أي: يخلطوا (إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ) الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا، لا بشرك، ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التام، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام، بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ الأنعام: ٨٣، أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها"[3].

ولا شك أن الإيمان إنما يقرره أهل العلم، وهم الذين يبينونه للناس، ويهدونهم إليه، وهم أحق الناس به، وهذا ما سنبينه بالمطلب التالي.

ب –العلم طريق الإيمان:

إذا كان القرآن قد قرر أن الإيمان قرين الأمن، فإنه كذلك قرر أن العلم والإيمان توأمان لا ينفكان، ولذلك قرن الله عز وجل بين العلم والإيمان في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

---

[1] جامع البيان ٤٩٤/١١.

[2] صحيح البخاري ٣٣٦٠.

[3] تفسير السعدي ٢٦٣.

ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ الروم: ٥٦. وكذلك قرن بينهما في قوله ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ النساء: ١٦٢.

ولا غرو أن يكون العلماء أعلم الناس بالإيمان وحقيقته، وأن يقترن الأمن به، لأن العلماء يعرفون الحق من الضلالة، ويميزون الإيمان من الكفر، فقال سبحانه: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾ سبأ: ٦.

إن المجتمع الخالي من العلماء مجتمع ناقص الإيمان، مليء بالبدع والضلالات، ولا أدل على ذلك من تاريخ هذه الأمة، فقد مرت بفترات متأخرة ضعف فيها الإيمان، ونقص فيها الأمن، وانتشرت البدع والشركيات في أرجائها، حتى سُميت تلك العصور بعصور الانحطاط الفكري، وقد تبع هذا الانحطاط الفكري انحطاط عسكري، فتقلصت أراضيها، وغربت شموسها، وخاف أبناؤها، وعند التأمل في ملامح تلك الحقبة التي ما زالت الأمة تعيش بعض آثارها، نجد أن قلة العلماء الربانيين من أهم سمات تلك الحقبة الزمنية.

وصدق الله إذ يقول في معرض التخويف: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ الرعد: ٤١.

وقال: ﴿ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ الأنبياء: ٤٤، ﴿ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ الأنبياء: ٤٤،

قال بعض السلف من أهل التفسير كابن عباس ومجاهد: "هو موت العلماء، ونقصانها ذهاب علمائها وفقهائها وخيار أهلها"[1].

[1] جامع البيان ٤٩٧/١٦.

وعن هلال عن حيان قال: "قلت لسعيد بن جبير ما علامة هلاك الناس؟ قال: هلاك علمائهم"[1].

ولذلك كانوا يضربون مثلا لنقصان الأرض بموت العلماء بالكف إذا قطعت، قال علي رضي الله عنه: "إنما مثل الفقهاء كمثل الأكف إذا قطعت كف لم تعد"[2].

ولكي لا يقال: لمَ، ولا يعترض على حكمة الله عز وجل في نقصان العلماء، ختم الآية بقوله: والله يحكم لا معقب لحكمه، سبحانه وتعالى.

ويؤيد هذا المعنى في تفسير الآية حديث عبدالله بن عمرو بن العاص: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[3].

ج-العلماء يمحصون الشائعات:

الشائعات تفتك بالمجتمع، وتهدم أركانه، ومتى انتشرت في مجتمع فإنه يضطرب، وتكثر قلاقله، ومن هنا يأتي خطر الإعلام في عصرنا الحديث، ومسؤلية العلماء في توجيهه، وتصحيح مساره.

فقد بيَّن القرآن الكريم حالة من الأحوال التي يتضلع بها العلماء الربانيون في مجتمعاتهم، وهي حالة الريادة والقيادة -أثناء الأمن والخوف- في قضية الإعلام، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ النساء: ٨٣، فالعلماء يعرفون ما يلائم المجتمع مما يصح نشره وما لا يصح نشره وإذاعته، وهم أعلم بتحقيق الأخبار وبيان حقيقتها.

ولعل في الحديث الطويل الوارد في تفسير هذه الآية نموذجا لدور العالم في مجتمعه، وقد كان العالم في هذه الحادثة: هو عمر بن الخطاب.

---

[1] الكشف والبيان ٣٠١/٥.

[2] الكشف والبيان ٣٠١/٥.

[3] متفق عليه رواه البخاري ١٠٠، ومسلم ٢٦٧٣.

عن عبد الله بن عباس قال: "حدثني عمر بن الخطاب، قال: لما اعتزل نبي الله صلى الله عليه وسلم نساءه، قال: دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى، ويقولون: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، فقال عمر، فقلت: لأعلمن ذلك اليوم، قال: فدخلت على عائشة، فقلت: يا بنت أبي بكر، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما لي وما لك يا ابن الخطاب، عليك بعيبتك، قال فدخلت على حفصة بنت عمر، فقلت لها: يا حفصة، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والله، لقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يحبك، ولولا أنا لطلقك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: هو في خزانته في المشربة، إلى أن قال: فقلت: يا رسول الله، ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن، فإن الله معك، وملائكته، وجبريل، وميكائيل، وأنا، وأبو بكر، والمؤمنون معك، وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام، إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول.ونزلت هذه الآيـــــــة آية التخيير: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ ﴾ التحريم: ٥، ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٞ ﴾ التحريم: ٤ ، وكانت عائشة بنت أبي بكر، وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله أطلقتهن؟ قال: «لا»، قلت: يا رسول الله، إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى، يقولون: طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، أفأنزل، فأخبرهم أنك لم تطلقهن، قال: «نعم، إن شئت»، فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه، وحتى كشر فضحك، وكان من أحسن الناس ثغرا، ثم نزل نبي الله صلى الله عليه وسلم، ونزلت، فنزلت أتشبث بالجذع، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده، فقلت: يا رسول الله إنما كنت في الغرفة تسعة وعشرين، قال: «إن الشهر يكون تسعا وعشرين»، فقمت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي، لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه، ونزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ النساء: ٨٣، فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر، وأنزل الله عز

وجل آية التخيير[1]، فعمر من سادات أولي الأمر الذين يستنبطون الأمور ويحسنون التعامل معها، ولذا روي عن بعض السلف أنه قال: (وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ) يعني حملة الفقه والحكمة (ل لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ) يعني الذين يفحصون عن العلم"[2].

وقال قتادة:"ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم"، يقول: إلى علمائهم (لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ) ، لعلمه الذين يفحصون عنه ويهمّهم ذلك[3].

قال الزمخشري: لعلمه الذين يستنبطونه منهم، لعلم صحته وهل هو مما يذاع أو لا يذاع هؤلاء المذيعون، وهم الذين يستنبطونه من الرسول وأولى الأمر، أى يتلقونه منهم ويستخرجون علمه من جهتهم[4].

د–أثر تعظيم العلم في حل مشكلة الاستهانة بالعلم والعلماء:

يمكنني أن ألخص أسباب الاستهانة بالعلم والعلماء في عامل واحد، ألا وهو "الجهل" تلك الكلمة التي استعاذ أنبياء الله عز وجل أن يكونوا من أهلها، وهذا الجهل ثلاثة أقسام:

الجهل بفضل العلم ومكانته في الدين، والجهل بمكانة العلماء، والجهل بخطر الجهل فهذه الجهالات تورث الاستهانة بالعلماء وتنقصهم، والازدراء بالعلم الشرعي.

أما الجهل بفضل العلم : قد تعددت مسالك القرآن في تعظيم العلم ، كما بينا ذلك في المبحث الأول.

وأما الجهل بمكانة العلماء: فقد سلك العلماء منهجا بيّنا في تعظيم العلماء وتوقيرهم، كما بينا ذلك في المبحث الثاني.

وقد عالج القرآن معضلة تنقص العلماء والاستخفاف بهم، تارة بإبراز دورهم القيادي في المجتمع، وقد بينا ذلك من خلال:

---

[1] رواه مسلم ١٤٧٩.

[2] الكشف والبيان ٣٥١/٣.

[3] جامع البيان ٥٧٢/٨.

[4] الكشاف ٥٤١/١.

١-أمر القرآن بطاعة العلماء، ٢-تقديم العلماء في القيادة، ٣-حصر الشورى في العلماء.

وتارة بتجريم الاستهزاء بهم، وجعله من كبائر الذنوب، بل من سمات المنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾التوبة:٦٥ – ٦٦.

وما أجمل أن يأخذ المسلم بقول ابن عساكر رحمه الله: "وَاعْلَم يَا أخي وفقنَا الله وَإِيَّاك لمرضاته ممَّن يخشاه ويتقيه حق تُقَاته إِن لُحُوم الْعلمَاء رَحْمَة اللَّه عَلَيْهِم مَسْمُومَة، وَعَادَة اللَّه فِي هتك أَسْتَار منتقصيهم مَعْلُومَة، لِأَن الوقيعة فيهم بِمَا هم مِنْهُ برَاء أمره عَظِيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاق على من اخْتَارَهُ اللَّه مِنْهُم لنعش الْعلم خلق ذميم، والاقتداء بِمَا مدح اللَّه بِهِ قَول المتبعين من الاسْتِغْفَار لمن سبقهمْ وصف كريم، إِذْ قَالَ مثنيا عَلَيْهِم فِي كتَابه وَهُوَ بمكارم الْأَخْلَاق وصدها عليم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ الحشر: ١٠، والارتكاب لنهي النَّبِي صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلم عَن الاغتياب وَسَب الْأَمْوَات جسيم ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور: ٦٣"[1].

[1] تبيين كذب المفتري ص٣٠.

الخاتمة:

لعل من أهم النتائج التي أسجلها في نهاية هذا البحث:

-سلك القرآن مسالك شتى في تعظيم العلم ليقرر هذه العظمة في نفوس المسلمين وليحملهم على طلب العلم.

-من أهم مسالك القرآن في تعظيم العلم: الحث على القراءة والكتابة، ومدح العلم وذم الجهل وأهله.

-مفاتح العلم ثلاثة، وكلها جاء بها التفسير في قوله: ﴿ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ طه: ١١٤ ، وهي: قرآنا، وفهما، وحفظا.

-عظَّم القرآن العلماء ووقرهم فكانوا خير هذه الأمة، بخلاف باقي الأمم حيث كان علماؤها شرارها.

-من أهم مسالك القرآن في توقير العلماء رفعهم درجات وجعلهم أهل الشورى والقيادة.

-من أهم أساليب القرآن في التحذير من الاستهزاء بالعلماء أن جعل الاستهزاء بهم كفرا ونفاقا.

-قرر القرآن ارتباط الأمن بالإيمان، وارتباط الإيمان بالعلماء لأنهم أعلم الناس به.

-على العلماء دور كبير في حفظ المجتمع من الشائعات المضرة بالمجتمع، وعليهم مسؤولية تصحيح الإعلام.

أهم المصادر:

أحكام القرآن، محمد بن عبدالله ابن العربي المالكي، ت محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ

أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ١٤١٥هـ

تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد الزبيدي، مجموعة من المحققين، دار الهداية.

تفسير القرآن العظيم، عبدالرحمن بن محمد بن إدريس الرازي، ابن ابي حاتم، مكتبة نزار مصطفى، مكة، ط٣، ١٤١٩هـ،

تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن كثير الدمشقي، ت سامي سلامة، دار طيبة للنشر، ط٢، ١٤٢٠هـ.

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت عبدالرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ

الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، ت البردوني وطفيش، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٨٤هـ

جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد ومحمود شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١ ، ١٤٢٠هـ.

التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبدالرحمن السيوطي، دار الفكر، بيروت.

زاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي الجوزري، ت عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢هـ.

سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد الذهبي، ت شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

فضائل القرآن، جعفر بن محمد المستغفري، ت أحمد السلوم، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢٤هـ.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت ط ٣، ١٤٠٧هـ

الكشف والبيان، أحمد بن محمد الثعلبي، ت نظير ساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ

مجموع الفتاوى، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، ت ابن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، ١٤١٦هـ

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، ت عبدالسلام عبدالشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ

معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري الزجاج، ت عبدالجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨هـ

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن ابي بكر ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.

المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، ت صفوان داودي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ.

النكت والعيون، علي بن محمد الماوردي، ت السيد عبدالمقصود، دار الكتب العلمية، بيروت.